قرأت العدد الماضي من "الآداب"

الأبحاث

بقلم : السيد يس *

***

حفل العدد الماضي من الآداب بعدد من الابحاث الهامة التي تناولت موضوعات علمية وفلسفية وادبية وسياسية . وتثير بعض هذه الابحاث عدة قضايا على اكبر جانب من الاهمية بالنظر الى تطورنا الفكري ، ومن ثم وجب أن نقف عندها متأملين حتى نضعها موضعها الصحيح .

١ ـ واول ما يطالعنا في العدد الماضي من ابحاث مقال صغير للدكتور اياد القزاز ليس بحثا في ذاته ولكنه دعوة واعية ومخلصة وذكية لانشاء معاهد علمية تتناول دراسة مختلف جوانب منطقة الشرق الاوسط . وينطلق الدكتور القزاز من ملاحظة واقعية مبناها ان جامعاتنا العربية ـ على الرغم من زيادة اعدادها عاما بعد عام ومن تطورها ونموها ـ لا تضم اي معهد خاص لدراسة البلاد العربية وبلاد الشرق الاوسط . بل ان دراسات المجتمع العربي كمادة علمية لم تدخل برامج هذه الجامعات الا في السنوات الاخيرة . وقد نجم عن ذلك ظهورسيل من الكتب الجامعية بعنوان « المجتمع العربي » غير ان اغلب هذه الكتب للاسف ـ وكما يقرر الدكتور القزاز بحق ـ يسودها الاضطراب وتخلو من التحليل العلمي الدقيق . غير ان هناك عيبا آخر يسهل لمن يطالع هذه الكتب بروح نقدية أن يلمسه . ذلك ان هذه الكتب ألفها اساتذة في الجغرافيا والتاريخ والسياسة والاقتصاد والاجتماع والقانون احيانا. وكان من نتيجة ذلك فقدان النظرة التكاملية في دراسة المجتمع العربي. فاستاذ الجغرافيا يدرس الموضوع اساسا من زاوية تخصصه ولا يعير الجوانب الاخرى الا اهتماما عابرا ، وكذلك استاذ التاريخ والاقتصاد والاجتماع . وقد يكون هذا المسلك مبررا من وجهة النظر العلمية . فليس هناك من سبيل للتخصص في فرع معين ان يسير بقدم واثقة في دروب كل الفروع العلمية الاخرى .

ولكن خطورة مثل هذه الكتب انها لا تعطي دارسيها من الطلبة الجامعيين المنظور السليم للمجتمع العربي ولمشكلاته المتعددة السياسية والاجتماعيه والاقتصادية والتاريخية والاجتماعية. ولذلك كان من الانسب ان تتكون « فرق بحث » من الاساتذة الذين ينتمون الى التخصصات المختلفة لاخراج دراسات شاملة تتميز بالعمق وبتكامل النظرة معا . غير ان هذا الاجراء ـ وان اتبعه عدد من الاساتذة المصريين فعلا ـ ليس من السهل تعميمه ، فالبحث العلمي ما زال في بلادنا يقوم على الفردية لا على الجماعية ، غير ان هذه قضية اخرى ، وان كانت تدخل في صميم الموضوع الذي يعرضه الدكتور القزاز .

وقد اشار الدكتور القزاز الى انه توجد في اسرائيل معاهد متخصصة في دراسة بلدان الشرق الاوسط ، وكذلك في الولايات المتحدة الامريكية وفي اوروبا . وضرب امثلة على المراجع البالغة الاهمية التي تصدر عن هذه المعاهد والتي تتناول بالتحليل العلمي الدقيق مختلف الظواهر السياسية والاجتماعية في البلاد العربية .

والواقع ان كل من اتيح له متابعة حركة النشر والتأليف في ميادين علوم الاقتصاد والسياسة والاجتماع ليروعه الدراسات والكتب والمراجع التي تصدر من هذه المعاهد وغيرها ، والتي تتناول ادق المشكلات الراهنة في البلاد العربية مستندة في ذلك الى ادق المصادر.

ومن هنا تكتسب دعوة الدكتور القزاز الواعية كل اهميتها . وبالرغم من اننا نقدر هذه الدعوة ونرى اهمية تبنيها وتطبيقها ، فاننا لو نظرنا الى الموضوع نظرة ارحب وأعم ، وناقشناه من اطار وضع العلوم الاجتماعية والانسانية في البلاد العربية ، لادركنا ان مجرد انشاء هذه المعاهد وتعيين عدد من الباحثين المؤهلين فيها لن يحل المشكلة حلا كاملا ، وذلك كله يتضح اذا ما حللنا الاوضاع السائدة في البلاد العربية والتي تحد من نمو الفكر العلمي .

ان ما يشير اليه الدكتور القزاز من مراجع علمية قيمة بما تتضمنه من منهج علمي دقيق ، وتقاليد اكاديمية رفيعة ، ليس سوى حصيلة عشرات السنين من الصراع الفكري والعلمي والسياسي في البلاد الاوروبية . ان هذا التقدم العلمي جزء من كل أعم ، يشمل التقدم السياسي والاجتماعي والاقتصادي .

وكما اننا متخلفون اقتصاديا واجتماعيا فنحن كذلك متخلفون علميا . وغاية ما أريد أن اركز عليه هنا ان التقدم العلمي الذي ينشده الدكتور القزاز وغيره من الباحثين العرب الجادين المخلصين رهين بتعمق مجرى الثورة العربية بكافة ابعادها ومن كل الميادين .

ما زلنا في البلاد العربية ، واقصد المثقفين ، نرتدي الاقنعة ونحكم ربطها حتى لا تكشف عن معتقداتنا وافكارنا الحقيقية . ما زلنا نتحدث بين انفسنا وفي الجماعات الصغيرة المغلقة بلغة ، واذا خرجنا لكي نخاطب المجتمع تحدثنا بلغة اخرى . ما زال لمجتمعنا التقليدي سطوة رهيبة على مشاريعنا الفكرية وعلى ما نريد ان نقدمه من انتاج علمي وفكري حتى يخرج هذا المجتمع من وهدة التخلف الثقافي والاجتماعي الى آفاق التقدم الرحبة .

وما زالت « السلطة » في مجتمعنا التقليدي ولا اقصد بالسلطة هنا مجرد جهاز الدولة ولكن أيضا الاعراف والتقاليد والعادات ـ تمارس بوسائل متعددة ضغطها على المثقفين والباحثين العلميين حتى لا يتحركوا الا في دوائر صغيرة مرسومة لهم سلفا .

ان علامة اكيدة من علامات التقدم ، الا يكون أي جانب من جوانب المجتمع « تابو» (أمرا محرما) يستعصي على الدراسة العلمية والتناول الموضوعي . غير ان ذلك في الواقع يحتاج الى جهود طويلة مضنية من اجيال من الباحثين العرب . غير ان هذه الجهود لن يتاح لها ان تثمر الا اذا التحم هؤلاء الباحثون مع كل قوى المثقفين في حركة واحدة . ولن يتاح لهذه الحركة ان تشق طريقها الا اذا تبنت منهجا فكريا نقديا ، يتيح لها دراسة الواقع الاجتماعي الاقتصادي العربي في حيويته وعينيته ، بغير تعصب نظري ساذج . غير ان هذا حديث يطول الكلام فيه ، وقد نعود لمعالجته بصورة اوفى في مناسبة اخرى . وتحية للدكتور القزاز الذي فتح باب المناقشة في هذا الموضوع الهام ، ونرجو له عودة حميدة الى الوطن العربي حتى ينضم الى كتائب الباحثين العلميين العرب الذين يبحثون بجد واخلاص عن الطريق الصحيح الذي ينبغي ان يختاروه ويسيروا فيه من بين عشرات الطرق المفتوحة .

٢ ـ وقد نشرت « الآداب » ـ او بعبارة اصح ـ أعادت نشر مقالة

ـ التتمة على الصفحة ـ ٦٨ ـ

(*) أضيف الى اسمي في العدد الماضي خطأ لقب « الدكتور » الذي لم أتشرف بالحصول عليه بعد ! لذا لزم التنويه .

القصائد

بقلم فاروق شوشه

***

في وقتها تجيء هذه الصرخة الحارة « انقذونا من هذا الحب القاسي » ، لشاعر المقاومة محمود درويش ، تلك التي نشرتها مجلة « الجديد » التي تصدر في اسرائيل ، والتي نقلتها « الآداب » في عددها الماضي . وهي تشير الى الحس النقدي المرهف الذي يتمتع به الشاعر ، والى وعيه أبعاد الحركة الادبية في الوطن العربي كله .

في وقتها تجيء ، لتفجر فينا ـ نحن الذين نتلقف شعر المقاومة ـ وعيا عميقا بضرورة اعادة تأمل هذه الموجة الكاسحة من الاهتمام والتعاطف التي توليها اجهزة الاعلام العربية ، لشعر المقاومة داخل الارض المحتلة . هذا الاهتمام والتعاطف اللذان اصبحا يشكلان ظاهرة جديدة ، يخشى منها حتى على شعر المقاومة نفسه ، عندما لا يستطيع الناقد العربي ـ بتعبير محمود درويش ـ التخلص من الخضوع التام لدوافع العطف السياسي وحدها على اصحاب هذه الحركة ، وعندما لا توضع هذه الحركة الشعرية في مكانها الصحيح من الحركة الشعرية العربية المعاصرة كلها .

ولقد كان ذلك طبيعيا .. وما يزال . ان تستقبل الامة العربية ، هذه الحركة الشعرية ـ التي اكتشفتها دفعة واحدة ـ بهذا المزيج من الفرح والدهشة والاكبار ، وان تسقط عليها الكثير من حاجتها الى البطولة والابطال ، في لحظات المحنة القاسية ، وان ترى فيها شعاع الامل القوي ، يشد الى مشارف الضوء الواعد الوجود العربي كله داخل الارض المحتلة ، والاحتجاج العربي العنيف على طغيان المد الصهيوني الاستعماري . وفي مساحة قصيرة من الزمان ، اصبح صوت المقاومة العربية داخل الارض المحتلة ، هو نفسه صوت التحول العربي الكبير من قاع الهزيمة والقنوط الى اكمة التماسك والتوازن والانطلاق. ولم لا ؟ ان الذين يعيشون بالفعل وجودهم اليومي داخل اسوار السجن الكبير يعلموننا معنى الحرية ، والذين يحيون بالفعل تجربة الصدام المباشر مع واقع النكبة والنكسة يلهموننا معنى الامل ، والذين يواجهون بالفعل طوفان المد الغاشم يرفعون الينا ـ نحن الغرقى ـ بيارق النجاة.

وتجيء صرخة محمود درويش ، لتنبهنا الى ضرورة أن يعتدل الميزان ، وتستقيم الاحكام ، وتزول نفسية الاسقاط والمغالاة .

فليس اخطر ـ على شعراء المقاومة ـ من وضعهم على امتداد مساحة الشعر العربي المعاصر كلها ، وكأنهم منقطعون أبدا عن حركة الشعر في البلاد العربية .

وليس اخطر من ادمان النظر اليهم بمنطق العطف والتقدير السياسي ، فقد آن الاوان ـ كما يقول محمود درويش ـ لاجراء عملية موازنة ، بالتأكيد على استخدام المعايير الفنية ، لا السياسية وحدها .

وليس اخطر من ان يقوم بعض شعراء المقاومة الناشئين بعملية تصميم قصائدهم وفقا لمقاييس غريبة عن الصدق ، وكأنهم ـ كما يقول محمود درويش ـ يستوحون قصائدهم من تصورهم لكيفية استقبال الاذاعات العربية لها .

***

ولكن ، بعيدا عن هذه المحاذير ، بعيدا عن هذه المراجعة الواعية ، بعيدا عن هذا النقد الذاتي الفريد ، الذي تتدفق به صرخة محمود درويش ، بعيدا عن هذا كله ، يبقى ان نقول ، ان هذا الشعر ، شعر المقاومة داخل الارض المحتلة ، قد وضع أيدينا بالفعل على المحك الحقيقي : بين ما هو شعر ولا شعر ، بين ما هو صادق وغير صادق ، بين ما هو طبيعي أصيل متدفق وما هو شائه بالغ الافتعال والاصطناع.

وعلى ضوء هذا المحك الصادق ، اصبح نموذج شعر المقاومة ، في طعمه ومذاقه الخاص ، وفي سماته وخصائصه العامة ، مفتاحا جديدا للرؤية الشعرية والنقدية ، وتحولا بالغ الخطورة في ذوق المتلقي ، فبالقياس الى هذا الشعر الحقيقي أصبح الكثير من قصائد شعرائنا طعم الملح ، وعجز البعض من شعرائنا عن أن يبهجونا ـ كعادتهم ـ وتجاوزهم ، واستحال الكثير مما كنا نجد فيه ـ من قبل ـ متعة وطرافة ، الى صفحات من العقم والجدب والجفاف .. باختصار ، لقد حجب عنا شعر المقاومة ، كل ما هو تافه وساقط وذليل ، واسقط من عيوننا كل ما هو بورجوازي متورم ، محشو بالفكر الخائب ، والتأمل الرخيص ..

اين يقع شعر العدد الماضي من الآداب ، من هذا كله ؟..

في البداية ، نطالع « البيت الاخير في القصيدة » و « اعرف من أين » لشاعر المقاومة سميح القاسم .

وانطلاقا من التفاصيل الصغيرة ، تأخذ الدلالة العامة ، جوها النفسي المتوهج ، وكثافتها الضاغطة ، وهي دائما السمة الرئيسية في شعر سميح القاسم . هذه القدرة الفذة على ان تتكلم ادق التفاصيل وأبسطها ، في اطار التلاحم والتآزر ، بالمعنى العام والمشترك ، وعلى ان تنقل هذه التفاصيل طعم الارض ولون التقاليد ومذاق الوطن ، وان تفجر في الوقت نفسه ، شجناتها الداخلية ، طاقات التمرد والرفض والثورة ، ومراجل الغضب الثوري .. هذه المواجهة الساخنة ، هي دائما لغة سميح القاسم ، مواجهة التحدي والاصرار ، يحتشد لها بادق التفاصيل ، وأخفى الايماءات ، ليضع نسيجه الشعري من لغة بسيطة متمردة ، حادة المواجهة ، شديدة الولع بالوصول الى مضايق الاشياء . لتحرك وتحرض وتثير :

وجع المزمار البلدي
من حلوة
فارسها غاب
ومن يومين
عاد جواده
والدم يسح على الصهوة
فلمن ستزغرد مزهوة
وتصب القهوة ؟

***

ان سميح القاسم ، ينكأ بئر الحزن الطافح في وجدان الشعب العربي . انه يعرف من أين يأتي وجع المزمار البلدي ، وكيف يسري ويتدفق هذا الشجو الحزين المنغوم ، يحمل قصص الشهداء والغائبين والصغار اليتامى ، وينقل سرطان الفجيعة من كبد الى كبد .. ، لكنه يفجر ، فيما يفجر ، عمق المأساة ، وهو يؤكد وعيه بالداء ، ويكسر جدار الاوجاع :

أعرف من أين ..
وجع المزمار البلدي
ياقصرا مهجورا
ترقص في ردهته البومة
يا شاعر شعب ، في شفتيه
مرثاة ملغومة
يا سرطانا ينهش في كبد
أعرف من أين
وجع المزمار البلدي

هل يكفي ان نقول : انه يحمل بصمات شعر المقاومة : الحزن النبيل ، والغضب الثوري ، واللغة الشعرية البسيطة ، الزاخرة بالتفاصيل والايحاء .

« ودع لي منطق الرؤيا » للشاعرة ملك عبدالعزيز

ما تزال هذه الشاعرة ، الصوت الذي يستحق ان يوضع في جدارة واستحقاق الى جوار نازك وفدوى وسلمى ، الشاعرات العربيات

ـ التتمة على الصفحة ٦٧ ـ

القصص

بقلم : يوسف الشاروني

*

يشتمل العدد الماضي من الاداب على اربع قصص بينها ثلاثة أوجه متشابهة :أولها أنها تدور جميعها حول المأساة التي تشغل اليوم عالمنا العربي ، وثانيها أنها بوجه عام قصص قصيرة أي ليست من نوع القصة القصيرة الطويلة حتى أن قصتين منها لا تتجاوز صفحة واحدة ، وثالثها ـ وقد يكون ذلك بالنسبة لي ، انها بقلم قصاصين أقرأ لهم أول مرة ، ولعل لهم محاولات أخرى لم يتح لي أن أطلع عليها .

اما بالنسبة للنقطة الاولى وهيأنها قصص تستوحي مأساتنا فلست ادري هل هذا يعود الى أن معظم ما يرسل للاداب من قصص يدور حول هذا الموضوع أم ان تحرير الاداب هو الذي يختار من بين ما يرسل له من قصص تلك التي تتناول ذلك الموضوع . سؤال أوجهه الى رئاسة التحرير لان الاجادة الفنية ـ حتى اليوم ـ في عالم القصة عسيرة حين تعرض لموضوع فلسطين ، وما تردد من اصداء له في عالمنا العربي . وقد ظهرت تعليلات كثيرة لذلك أهمها أننا نعيش اليوم في قلب الاحداث ، وان الفن يتطلب وجود مسافة زمنية حتى لا يصبح تحت رحمة الانفعال ، مما يجعله عرضة لزلق التعبير المباشر أو عدم التعبير عنه تعبيراً دراميا ناجحا . ومن ناحية اخرى يحس كثير من الادباء بالخجل حين يمارسون القول في وقت كان عليهم أن يمارسوا فيه الفعل . غير أن القول ـ في عالم اليوم ـ لا يقل أثرا عن الفعل . فالحضارات تعبر عن نفسها تعبيرا متوازيا فعلا وقولا ، وقد تعلمنا منذ الخامس من يونيو عام ١٩٦٧ أن اقناع العالم بعدالة قضيتنا يجب أن يتم فعلا وقولا .

« الموت داخل الكتب وخارجها » لنيروز مالك

لهذا سأبدأ بهذه القصة لانها تتناول موضوع المقارنة بين القول والفعل كما يدلنا على ذلك عنوانها : داخل الكتب وخارجها . فسعيد كان لا يصرف نقوده انما يدخرها حتى اذا تجمع له ثمن كتاب سارع الى مكتبة المخيم ليشتري منها واحدا . وعندما يسأله والده ماذا يجد فيها يجيبه : حتى الان لا شيء . غير أنه عندما اشترى ذات يوم كتاب « رجال في الشمس » لغسان كنفاني لم ينم حتى قرأه كله ، وقام في الصباح ليعلن انه كتاب رائع .

وتوقف سعيد عن القراءة ليمارس الفعل ، كانما هناك تضارب بين الاثنين حتى ليعلن سعيد أن الكتب طريقها عقيم . وحين هم سعيد بالذهاب داعب أخاه الاصغر باسل قائلا : ان لم اعد سأكون في انتظارك . ولم يعد سعيد ، سقط على الارض التي كانت ـ كما قال أبوه ـ أغلى منه ومن باسل ومنا جميعا .

ووراءه خرج باسل ، ترك والده صباحا في الثالثة عشرة من عمره وعاد ظهرا في العشرين . وهكذا انضم باسل الى المعسكر .

ولا يملك القاريء من التساؤل بعد قراءة القصة ، هل هناك حقا هذا التضارب بين القول والفعل ؟ هل ينصرف الانسان عن عالم الثقافة اذا هو انصرف الى القتال ؟ الا تعلمنا تجربتنا اليوم اننا لكي نحسن القتال لا بد وان نقرأ وأن نحسن ما نقرأ ، وان الحرب الحديثة علمية قبل أن تكون حروبا عضلية ، وانها حرب حضارات : ثقافة ومسلكا قبل كل شيء ؟

الدوائر الخمس بقلم نواف أبو الهيجاء :

أما هذه القصة فهي اكثر القصص الاربع احتفاء بالشكل . بطلها بلا اسم يتحدث بضمير المتكلم . والوحدة الزمنية في القصة تتحقق من حيث انها تتناول لحظة يتعرض فيها البطل للتعذيب للحصول منه على اعتراف . لكن هذه اللحظة تضم حياته كلها ، فالانفعال يتم ما بين العالمين الخارجي (حيث وسائل التعذيب ووقعها على البطل وحيث تصف محاولات معذبيه للحصول على اعتراف منه) والعالم الداخلي حيث نطلع على لمحات من حياته ابتداء من طفولته . وحيث ندرك الترابط بين حاضره كفدائي صلب يأبى الاعتراف بشيء ، وماضيه كلاجيء مطرود من ارضه . ويتم الانتقال ما بين العالمين عن طريق اللفظ والمعنى ، فحين يهددونه بالتعذيب باسلاك النار يرتد الى طفولته حين حاول عبور الاسلاك الشائكة بمعسكر الشعبية قرب البصرة ، ويمكن لمحاولة اجتياز هذه الاسلاك أن تكون دلالة على محاولة التمرد على الوضع الذي يراد له ـ ولبقية اللاجئين ـ ان يكون محصورا فيه. وعندما يلعب مع زميله قدري ويفرسان سكينهما في قلب الرمال ، نرتد الى الحاضر لنسمع معذبه يهدده بانتزاع قلبه منه . وعندما يحرقون رموش عينيه يعود فيذكر حريقا اندلع في تجمعات اللاجئين ببغداد منذ عشرين عاما ... وهكذا حتى ندرك من تسلسل ذكرياته انه الان أب له زوجة وله طفل ... الى ان يغيب عن الوجود وهو ما يزال يرفض الاعتراف ، وتنتهي القصة بنفس الكلمة التي بدأ بها وهي « كلا » مما يكشف عن تصميم القصة الهندسي .

الخط الوهمي لمحمد علي طه :

اما هذه القصة المنقولة عن جريدة الاتحاد بالارض المحتلة كما فهمت فحيزها أقل بكثير مما تريد أن تنقل من مشاعر ، انها تحكي قصة أخوين يتقابلان في القدس حيث يفصل بينهما الخط الوهمي ، فلا يكادان يتعرفان على بعضهما ويتعانقان حتى تفصل القوة بينهما . والقصة معبر عنها من زاوية أحد الشقيقين وفيها يذكر ـ وهو في طريقه الى أخيه ـ ومضات من طفولته ومخاوفه من الا يتعرف على أخيه بعد فرقة دامت ثمانية عشر عاما . شعرت ان هناك تفاصيل كثيرة دقيقة وهامة لم يبرزها كاتب القصة ، فانما فتح لنا منجما . ولم يستخرج منه الا أقله . هل القصة كتبت على عجل ، فقد كان يمكن التعرف اكثر على الشخصيتين الرئيسيتين في القصة وعلى ما يعتمل في عالمهما الداخلي قبل وأثناء هذه اللحظة الهائلة ، لحظة التقابل التي ما تكاد تتم بعد هذا الفراق الطويل حتى تنهيها القوة .

فوق الشجرة لاميمة ابو النصر :

بقيت أخيرا هذه القصة ، وبطلها عامل فلسطيني في الارض المحتلة ـ بلا اسم ـ كان عائدا مع زملائه من عملهم في سيارتهم ، حين وجد زملاءه يتساقطون في لحظة تحت رصاص الجند دون أن يعرفوا السبب ونجا هو وحده ، فلجأ الى شجرة يحتمي بها لمدة ثلاثة أيام حتى اكتشفه أهل قريته . وزاوية الرؤيا في القصة هي العالم الداخلي للشخصية الرئيسية في القصة ، حيث تذكرنا بقصة الدوائر الخمس ، فنحن ننتقل ما بين الماضي والحاضر وما بين العالمين الداخلي والخارجي. وكما تبدأ قصة الدوائر الخمس بما تنتهي اليه ، فان قصة فوق الشجرة تنتهي أيضا بما ابتدأت به وهو وجود البطل فوق الشجرة .

وهذه القصة كسابقتها لم تستوعب المشاعر وتفاصيل الاحداث استيعابا تاما . وقد ذكرتني على الفور بقصة للكاتب الروسي سيرجييف تسينسكي بعنوان « رجل لا تستطيع قتله . ضمن مجموعة نشرتها دار فابر بلندن ، حيث نعثر على موضوع مشابه لكن كاتبها استطاع ان يقنعنا انه عايش شخصيته معايشة الصديق لصديقه .

بقي اعتراف اخير أريد أن اصرح به يتصل بالاثر العام الذي كونته قراءة القصص الاربع في نفسي برغم تفاوتها من حيث المستوى . ذلك انه لم أحس ان هناك جهدا مبذولا وراء كتابة معظم هذه القصص. وقد وجهت اللوم الى نفسي اولا وقلت لعل كتابها شباب وهذه دلالات انفصال بين جيل الشباب وجيلنا الذي يحلو للبعض أن يسميه جيل الوسط . لكن خبرتي في مسابقات نادي القصة بالقاهرة ـ ومعظم المتقدمين اليها من الشباب وحيث يتاح لي أن أفحص ما بين خمسين الى مائة قصة قصيرة ، علمتني ان القصة الجيدة تجريبية كانت أو تقليدية تفرض نفسها على القاريء .

القاهرة — يوسف الشاروني

تتمة القصائد

***

الثلاث ، الرهافة التي تصنع منها شبح بنائهـــا الشعري ، والموسيقى الناعمة المنسابة في هدوء واتساق ، وهذه الغمامة الحزينة الغافيـــة تظلل آفاقها الرمادية ، هي دائما سمات هذه الشاعرية الخصبة ، وهذه القصيدة الجديدة ، للشاعرة ملك عبد العزيز ، هي حلقة جديدة فـــي تيار التأمل الشعري العميق الذي تستغرق فيه الشاعرة ، وينعكس على قصائدها الاخيرة جميعا ، ذوب قلب يقظ ، وانصهار صوفية غامـرة ، تتلمس المعاني والكلمات والاشياء ، تلمس حب وتقديس ، وتتعامل مـــع تجاربها الكونية ، في مودة ورضا وسماحة ، وتضفي مـن ينبوع نفسها الثر ، على قسمات عالمها الشعري :

لـي الرؤيـا
مخضبة بكل معارك الاحرار
وشامخـة ..
تشع النار والانوار
أغني ، بل أغني للمدى المنداح
وأنشد من اناشيدي احتواء الكل والمطلق
سيتبعني الغواة غدا
سينبتهم تراب الارض .
فكم شرب التراب الخصب من عرق الحياة ،
وكم تغذى من أسى دمهم ...

ان التأمل الشعري الصافي ، يصل جزئيات الحياة ـ لدى هـذه الشاعرة ـ بالكل والمطلق ، ويحملنا من الخاص الى العام ، ويجتاز بنـا عالمها الخصب الرحيب ، الذي يصم هملت العصر بالانهزامية والتوقف، ويصل بنا الى منطقة الفعل والتحقق . وهكذا تصبح هذه « الرؤيا » اجتيازا ثوريا لعالم الحكمة العرجاء ، ومتاهات الظن ، واطلالة على قلب الشعب ومنطق التاريخ .

« لعبة الشارات الضوئية » لممدوح عدوان

بالرغم من ان سيطرة التعبير الشعري على آفاق هـذه القصيدة لم تكن في مثل وهج تجربتها ، الا ان هذه القصيدة هزتني . هل هـــو هذا البعد الثاني يطل من بعيد ، موحيا ، مفسرا ، يلقي بقطرات الضوء على لعبة الاحمر والاخضر ، بيـــن الانطلاق والتوقف ، حيث تتجمـــد الحركة ، ويتوقف الفعل ، ويصبح المصير ، ليس فقط مصير فرد ، ام انها هذه البساطة الشديدة ، التي حملت روح التجربة والقت بها فـي سماحة ويسر ، دون اصطناع او تقعر . او محاولة للايهام بالرمز الخفي، او المعنى الشارد ، او الاحتماء خلف سياج الزخرف الكاذب ، وضباب العبث الاجوف ، ام هي هذه الموسيقية المنسابة ، تصل لمقاطع القصيدة بدائرة نغمية واحدة ، بالغة الحرص على التقفية ، التي تولـد بدورها ايقاعا متصلا ، يواكب لعبة الشارات الضوئية ، بين الاحمر والاخضر ، والانطلاق والتوقف .

وأنـا واقف ..
أرقب من ركني هذا الجمع الخائف .
أرقب كيف تصير المدن متاحف ..
كيف تصير الخيل سلاحف ..
واذا غضب الشرطي ، وجاء لينهرني
لن اتردد ، لن تخنقني الرهبة
وسألقي تحت حذائيه اللماعين بقلبي الواجف .

هل أقول ان بعض مقاطع القصيدة، أفلتت صياغتها من بين انامل الشاعر ، فاقتربت من برودة النثر ، وجعلت خـط القصيدة البيانـي ، يتعرج في بعض المنحنيات ..

وأنا لسـت بخائف
ولذا اتوقف في هذا الركن المكسور
أرقب ما يجري وفمي « ناشف »
لم يبق لدي فضـــول
لم يبق هنا معنى للنور
أو معنى للمسموح او المحظـور

ان بساطة التجربة ، وغناها ، ودلالاتها العميقة ، تجعلني أطالب الشاعر بسيطرة فضلى ، على لغته الشعرية » سيطرة تسمح بالاختيار، وتنفي الحشو الهزيـل .

٥ حزيران للشاعرة سلافـة حجاوي

أظلم هذه القصيدة كثيرا ، لو قرأتها في ظل شعر المقاومة . لكن قصيدتي ، سميح القاسم ، في مستهل الآداب ، تخلعان ظلها شئت ام أبيت على قصائد هذا العدد . لا مفر اذن من ان اضطرب بين شعـر الحركة وشعـر السكون ، بيـن الجديد المفاجيء ، والتقليدي المتواتر ، بيـن الحار المتدفق ، والاخرس الجامـد ..

يا من رحلـوا ...
يا من رحلوا في الصحراء
في الصحراء بدون رداء
في الصحراء بدون رثاء
وشيوخ تزحف كالاحزان
وصغار تشربها الشطآن .
وخيـام تنصب بعد خيـام
وفتـات تجمع للايتـام
ودم الشهداء يفور بكل بقية ماء ..

هل يشفع لهذه القصيدة ، ايماءاتها الحزينة، الغائرة فيالنفس، وروح الامومة الحانية ، تطل وترنو من بين الكلمات ، وحشد من الصور المشحونة بالذكريات الساخنة عن حيفا وعكا وفلسطين الام ، وصرخة في ختـام القصيدة تؤكد ان ،

ففلسطين درب مـن نـار
ترقب في الليل خطى الثـوار .

لا أظن ذلك كله ، ينهض بالقصيدة ، ليجعل منها نغمة جديدة في وتر الشعر القومي . ان سمة « الامومة » تبقى هي اللمسة الوحيـــدة المضيئة التي تلوح وتختفي ، تغيـم وتبرق في سماء هذه القصيدة ،التي تظل وعدا يرجو ان يتحقـق .

أبجدية القهر والغضب للشاعر حبيب صادق

أختار ان انهي الحديث عن هذه القصيدة ، التي تشير الىظاهرة من لون مختلف . ان الشاعر هنا ينطلق من منطقـة الانفعال الشعري العام ، محاولا ان يلم من هيولاه الغائمة شتات نسيج القصيدة . صحيح أنه يشير الى ان القصيدة من مطولة شعرية بهذا العنوان ، ولكن هـذا لا يشفع له في تبرير الغموض الذي جمدت فيه القصيدة وتقوقعتدون ان يتاح للتجربة فرصـة التمثل ، التي تعطي للمتلقي معنى ودلالة . والا فهل يكفي هذا الزخم المتلاحق من الصور المحشودة حشوا، لبناء نسيج حي نام متآزر ، يعمق الشعور بتجربة ما ،

تلك خيول النار غرقى في رمـال الليل
لا نأمة الا صدى السكـون
مخالب الوحشة ، في أوردة العيون
تغوص مثل الحزن في لدائن الشعور
تمزقـت
تناثرت أشرعـة الضياء
لا نجمة تسبح في بحيرة المساء
اليد تمتص المـدى ،
الى متى يحتضر العصفور
الى متى ؟ وحده في حديقة الشتاء ؟
هاجرت الفصـون .

لم يبق الا الطحلب الساقط من مدائن الخراب ..
... الخ ...

هذا الزحام المتلاحق من الصور ، والتراكيب ، يتراكم دون ان يضيف ، أو تلقي في النفس جمرة حارة متوقدة ، تضيء بالتجربة الدامغة والمعنى المضيء . ويبقى مجرد استعراض لقدرة الشاعر على استهواء الالفاظ والتراكيب الغريبة ، بدعوى الوعي والتأمل ..

هنا تغني النار للنحاس والحديد
هنا تفيض أنهر الجحيم
تعمدي بالقمر ياملكة الخصيان
وليتوهج في العيون الشبق السعير .

ان هذه القصيدة نموذج للون من الشعر ، يشغل الآن مساحة لا بأس بها واخشى أن تكون هذه المسحة الضبابية التي يستتر بها، قشرة تخفي عمومية التجربة ، او سطحيتها ، أو فلطحتها .. والشعر في جوهره خصوصية ، وعمق وتركيز .. ،خاصة وأن مثل هذا الغموض الذي تحمله القصيدة لا يضع بين يدي المتلقي مفاتيح العالم النفسي للشاعر ، ودلالات الرموز المتتابعة التي تزخر بها القصيدة .. وعندما يتوقف الرمز عن ان يحمل معنى ، وتنعدم المفاتيح الموصلة الى عالم الشاعر ، تفقد القصيدة معناها ، وتصبح مجرد قدرة « رياضية » ذهنية ..

★★★

يبقى أن أتوجه باعتذاري العميق للشعراء : سلمان الجبوري ، وأحمد دحبور ، وفؤاد الخشن .. أملا أن التقي معهم في قصائد قادمة.

القاهرة

فاروق شوشة

★★★

تتمة ـ الابحاث

هامة لشاعر المقاومة محمود درويش بعنوان « انقذونا من هذا الحب القاسي ! » ويتضمن المقال عرضا بالغ الاتزان والموضوعية لمشكلة الشعر الفلسطيني ، والاتجاهات المختلفة للنقاد العرب ازاءه . ويكشف المقال في صراحة عن بعض ردود الفعل الانفعالية لهذا الشعر الذي يبدعه جيل من الشعراء العرب في الارض المحتلة ، والتي كادت تقول ان هذا هو الشعر الذي لا شعر بعده . ويبين محمود درويش أن هذا الشعر ليس سوى رافد من روافد نهر الشعر العربي الكبير ، وهو رافد تغذى على حيوية هذا النهر الزاخرة .

ثم يشير محمود درويش الى قضية هامة هي : كيف يمكن ان نعثر على المحك الذي نستطيع على اساسه المفاضلة بين الشعر الذي ينتجه الشعراء العرب في الارض المحتلة وغيرهم ؟ يرى محمود درويش انه قد يكون من الجائز ـ الى حد ما ـ القول ان الشعر العربي الذي يكتب في اسرائيل بشكل عام اقرب الى صدق التجربة والاصالة من غيره في تصويره صراع الانسان الفلسطيني .

وهذا الرأي يستحق منا وقفة قصيرة عنده ، خصوصا وان الدكتور عبد الغفار مكاوي قد ذهب الى نفس الرأي في تعليقه على القصائد التي نشرت في العدد الماضي من الآداب . يقول الدكتور مكاوي « ... هذا وقت المغامرة والجسارة ، وقت الصدق ! وطبيعي ان لا يقدر على هذا الا من كانت يدهم في النار . وطبيعي ان تأتي اصدق اشعار المقاومة من شعراء يقاومون بالفعل » . ثم يضيف في موضع آخر « لا استطيع ان اقبل شعرا عن المقاومة من شاعر يثرثر في مقاهي القاهرة او يعيش في الحجرات المكيفة الهواء في غيرها من المدن العربية » .

ما مدى صحة هذا الرأي ؟ هل صحيح ان الشعر الجيد عن المقاومة لا يمكن أن يبدعه الا من يعيش في الميدان فعلا يكتوي بناره ، وينفعل انفعالا مباشرا بالتجربة ؟ هل صحيح أننا ينبغي ان نرفض ابتداء شعر معين بسيسو لانه يقيم في القاهرة ، وان نقبل ابتداء ـ أيضا ـ شعر محمود درويش لانه يقيم في الارض المحتلة ؟

لقد سبق لنا في العدد الماضي في تعقيبنا على مقال لغالي شكري ان رفضنا تفرقته التعسفية بين شعراء المعارضة الذين يقيمون داخل الارض المحتلة وبين شعراء المقاومة الذين يقيمون خارج الارض المحتلة .

ونحن هنا أيضا لا نستطيع ان نقبل معايير خارجة تماما على نطاق العمل الادبي نفسه للحكم على صدقه او زيفه ، جودته او رداءته . فمثل هذه المعايير ـ ان قبلت ـ تقتضي من قارىء الشعر ان يتساءل اولا : أين يقيم الشاعر صاحب القصيدة ؟ أيقيم داخل الارض المحتلة أم في القاهرة او دمشق او بغداد ؟ وهل يحيا حياة رخية وينعم بالكتابة والعيش في حجرات مكيفة الهواء أم يحيا حياة متقشفة تتناسب مع جلال الموضوع الذي يعالجه وهو المقاومة ؟

الحقيقة ان مثل هذه المعايير الايكولوجية ـ التي تتعلق بأين يقيم الشاعر ، او كيف يحيا لا تصلح في رأينا اساسا لقبول الشعر او رفضه او الحكم على جودته او رداءته ، صدقه او زيفه .

ان القصيدة الجيدة الصادقة تنفذ الى وجدان القارىء المتذوق بغير وساطة ، وبغير حاجة الى بحث اجتماعي عن حالة الشاعر . ومن هنا نختلف مع محمود درويش ومع الدكتور مكاوي في ربط صدق الشاعر بمكان اقامته ومعايشته اليومية للاحداث . قرب شاعر يقيم في القاهرة يبدع عن المقاومة قصائد يعجز زميل له يقيم فعلا في الارض المحتلة عن ابداع مثلها . وقد يحاول ـ كما اشار محمود درويش ـ شاعر عربي يقيم في الارض المحتلة ان يصمم قصائده وفقا لمقاييس غريبة عن الصدق !

وخلاصة رأينا أننا نرفض هذا المعيار « الايكولوجي » لتقييم الشعر . ولكن بقي سؤال هام : ما هو ـ على وجه التحديد ـ معنى الصدق الذي ركز عليه محمود درويش وعبد الغفار مكاوي ؟ سؤال مطروح لنقادنا المعنيين بالشعر ومشكلاته .

٣ ـ وينقلنا بعد ذلك الاستاذ سمير احمد ندا من الشعر الى الرواية ببحث وجيز له بعنوان « نجيب محفوظ والميتافيزيقا » .

والحقيقة ان هذا المقال يثير مشكلة أعم من موضوع الدراسة ، وهي مشكلة المنهج في النقد الادبي . فكثير من الكتابات النقدية العربية يعوزها المنهج الذي نستطيع على ضوئه ان نتفق او نختلف مع الناقد . واذا سلمنا بأن هناك في النقد الادبي المعاصر مدارس ثلاثا أساسية : سوسيولوجية ، وسيكلوجية ، وفلسفية ، فانه يمكننا القول أن مقال سمير ندا يقع داخل دائرة النقد الفلسفي للاعمال الادبية . والنقد الفلسفي كما يمارس في الآداب الاجنبية ، يقتضي من الناقد معايشة معمقة لكل اعمال الاديب المدروس ، حتى يستطيع ان يكشف في جلاء عن نظرته الى العالم ، وعن القضايا الميتافيزيقية الرئيسية التي يبثها بين تضاعيف سطوره في اعماله المختلفة . على ضوء هذه الاعتبارات العامة ـ التي لا يتسع المجال للتفصيل فيها (١) ـ يمكن لنا ان نحكم على مدى توفيق سمير ندا في دراسة لنجيب محفوظ من هذه الزاوية .

قدم الكاتب لموضوعه بمقدمة سريعة حرص فيها على ان يشرح ـ في هامش ـ مصطلح الميتافيزيقا ، ثم انتهى سريعا الى حكم مضمونه ان « خلفية نجيب محفوظ تختلف كثيرا عن تلك التي يصدر عنها الآخرون ، فقد تميزت معظم اعماله عن الدوحة الروائية الميتافيزيقية

---

١ ـ سبق لنا ـ في اطار مناقشتنا لمدرسة النقد الادبي الجديد في فرنسا ـ ان عرضنا لهذا الموضوع بشيء من الافاضة . انظر : السيد يس ، النقد الادبي والفلسفة ، مجلة (الكاتب) القاهرية، عام ١٩٦٨ .

الاوروبية وفي مقدمتها جويس وبروست ثم سارتر وكامو وبيكيت ويونيسكو ، وكذا الرواية الروسية وعلى رأسها فيدور دستويفسكي » .

ولا ادري ماذا يقصد الكاتب بهذه الدوحة الروائية الميتافيزيقية الاوروبية ؟ غير ان اهم من ذلك كله ان الكاتب قنع بتسجيل هذا الحكم بدون ان يجهد نفسه في أي تدليل على صدقه . وعلى ذلك فالقارىء لا يستطيع ان يعرف كيف يختلف نجيب محفوظ عن هذا الطابور الطويل من الاسماء اللامعة ؟

وبعد اشارة سريعة الى اقتران الميتافيزيقا بالرواية والاعتراض على ذلك ، انتقل مرة ثانية الى نجيب محفوظ نقرر انه ـ بعد ان اجتاز رحلته التاريخية في ثلاثيته الفرعونية ـ شرع في اقتحام الواقع ومواجهة شخوصه ، متزودا بهذا الرصيد المتنافر من الغيبيات والفكر الليبرالي ، ثم من المنطق العلمي والفكر الاشتراكي .

وقد كنا نتوقع من الكاتب ان يدرس لنا اعمال نجيب محفوظ على ضوء هاتين المرحلتين المتمايزتين : مرحلة الايمان بالغيبيات والفكر الليبرالي ، ثم مرحلة الايمان بالمنطق العلمي والفكر الاشتراكي ، هذا اذا صدق انه يمكن التمييز بين هاتين المرحلتين عند نجيب محفوظ . ولكن الكاتب قنع بالاشارة الى رواية « القاهرة الجديدة » وغلبة الفكر فيها على المعالجة الدرامية . ثم انتقل بدون تمهيد للحديث عن شخصية كمال عبد الجواد واندفاعه لخوض غمار تجربة البحث عن الحقيقة ، والتماسه للنجاة في ايمانه بنظرية دارون . ويشير بعد ذلك الى البلبلة الفكرية التي يعاني منها ابطال نجيب محفوظ اقرب الى « القلق الوجودي » .

وينتقل الكاتب بعد ذلك الى مناقشة نقطة هامة وان لم يعطها حقها للاسف من الدراسة وهي : اذا كان ضياع الابطال في روايات نجيب محفوظ الاولى ربحه تفسيره في الظروف التاريخية والاجتماعية والسياسية التي كانوا يعيشون في ظلها ، فكيف نفسر ضياع الابطال الجدد : سعيد مهران ، وصابر الرحيمي ، وعمر الحمزاوي ، وانيس زكي ، مع ان المجتمع قد تغير ودوافع الازمة لدى الابطال القدامى قد انتفت ؟

حاول الكاتب ـ عن طريق استخدامه لمقتطفات من حوار نجيب محفوظ ـ ان يفسر هذه المشكلة ، ولكنه لم يوفق ، وان كان قد حاول ان يعثر على الخيوط الممتدة بين ابطال نجيب محفوظ بالرغم من تعدد اسمائهم .

ان دراسة نجيب محفوظ من وجهة نظر النقد الادبي الفلسفي دراسة هامة في ذاتها ، ولكنها تحتاج في الواقع الى ناقد أدبي متعمق، يبدو امتلاكه لزمام المنهج في معالجته لهذا الموضوع المعقد . ان مقال سمير ندا لم يرتفع الى هذا المستوى ، وان كان يشير في نهاية مقاله الى انه سيواصل دراسة الموضوع ، ولذلك نأمل ان تكون دراساته القادمة اكثر منهجية ووضوحا في عرض الافكار وفي مناقشتها .

٤ ـ ويأتي بعد ذلك دور الفلسفة في بحث الاستاذ عزيز السيد جاسم عن « العلاقات الجدلية بين النظرية والثورة » .

يبدأ الكاتب بحثه بتقرير حقيقة لا مجال للجدل بصددها ، وهي ان سمة عصرنا الاساسية هي التحول الاشتراكي . وهذا يتفق مع ما قرره جان بول سارتر في كتابه « نقد العقل الجدلي » من ان الاشتراكية العلمية هي فلسفة القرن العشرين . والحقيقة ان هذا ليس مجرد حكم نظري ، بل هو تسجيل للوقائع الملموسة في المجتمع العالمي ، حيث يدين مئات الملايين من البشر بالاشتراكية التي تكسب كل يوم ارضا جديدة .

ويشير الكاتب اشارة صائبة الى تعدد الطرق التي يسلكها التحول الاشتراكي في الوقت الراهن من ناحية ، والى تعدد الاساليب التي تنتهجها الرأسمالية من ناحية اخرى للحفاظ على حياتها . ومن هنا تتعدد اساليب النضال لدى المكافحين في سبيل التحول الاشتراكي لمواجهة الوجوه المتعددة للرأسمالية المعاصرة .

نحن اذن في فترة نضال من أجل التحول الاشتراكي ، فهل يستطيع الفكر الثوري ان يقف بعيدا عن عمليات التغيير التي تأخذ مجراها ؟ يجيب الكاتب ان الفكر الثوري يتجاوب بشكل كلي مع الفعاليات الثورية .

ثم ينتقل الكاتب الى تحديد هدفه من كتابة بحثه ، فيذهب الى ان الثورة العربية تمر بأزمة فكر حيث لا تزال الاقسام الوسيعة من الفكر العربي تحبو تحت ضغط التقليد الغيبي والتحليل الرجعي والنفعية البورجوازية ، ومن هنا يبدو ضروريا مناقشة عدد من الموضوعات كمساهمة اولية ومدخل للقضية الاساسية ، قضية اعداد فكر ثوري عربي ممتلىء يتحرك بالثورة وتتحرك به الى اهدافها القصوى .

وقد ناقش الكاتب في هذا المقال ـ وهو حلقة اولى في سلسلة من المقالات ثلاثة موضوعات اساسية هي : هل الفكر سابق للثورة ام بالعكس تاريخيا ؟ والعلاقة بين الفكر والبناء التحتي ، واخيرا النظرية الثورية والفكر عند الثوري .

وقد كنا نأمل من الكاتب ان يبدأ اولا بتشخيص ازمة الفكر التي تمر بها الثورة العربية ومحاولة تفسير العوامل التي ادت اليها ، وكذلك طرق القضاء عليها ـ او على الاقل ـ وسائل الخروج منها . فتلك في الحقيقة قضية القضايا ان صح التعبير ، وليس هناك مجال لاي عمل ثوري موحد وفعال الا اذا استند الى أرض صلبة من فهم الواقع العربي المعاصر . بغير هذا الفهم تصبح كثير من النظريات والدعوات والشعارات مجرد نداءات يوتوبية لن يتاح لها التطبيق .

يبدأ الكاتب مناقشة للموضوع الاول بعبارة تقريرية حاسمة :

ان روح الثورة في الانسان هي السابقة . ويستخدم الكاتب هذا « المصطلح » روح الثورة استخداما واسعا جدا . فهذه الروح هي التي تغذي تصرفات الانسان وتحدد له وظيفته العامة ازاء الكون وازاء علاقاته الاجتماعية اليومية » . وهذه الروح طبيعية في الانسان ولكنها تتخذ اشكالا عديدة فقد تكون بدائية راكدة ، او بدائية عنفوانية ، وقد تكون واعية سالبة او ايجابية واعية . وروح الثورة عند الانسان لا يمكن قصرها على « العاطفة » أو على « العقل » بل هي مزيج من العقل والعاطفة .

ويتضح مدى اتساع دائرة استخدام عبارة « روح الثورة » عند الكاتب . في اعتباره ان لجوء الانسان الى استعمال «العصا» او « الحجر » ليعني ان روح الثورة في الانسان هي التمرد الطبيعي على الوضع السلبي الحيواني. غير ان ظهور تقسيم العمل في المجتمع هو اول سبب رئيسي حاسم أعطى لروح الثورة في الانسان ـ في نظر الكاتب ـ وضعها العياني البارزة وبعدما يتحدث الكاتب عن ظهور التقسيم بين الرجل والمرأة كأول تقسيم اجتماعي للعمل ، وكذلك التقسيم الناتج عن الزراعة والصيد ، وبعد ذلك الزراعة والرعي وآثار ذلك في وعي الانسان بالثورة الكامنة في اعماقه ، يخلص الى ان الصراع الطبقي قد بلور روح الثورة بلورة عميقة ودفع بها الى حدود اخرى خارج الذات وبشكل عملي وجمعي محسوس .

ويتساءل الكاتب : هل كانت ثورة سبارتاكوس مزودة بفكر ثوري او على الاقل بنظرية في الثورة ؟ ويرد على ذلك بالنفي . ثم يخلص الى نتيجة هامة هي أن اغلب الحركات الثورية قبل العهد البورجوازي كانت حركات مفتقرة الى الفكر الثوري .

والحقيقة ان قبول او رفض هذه النتيجة التي يخلص اليها الكاتب ، يعتمد على معرفة ماذا يقصده بالثورة وبالفكر الثوري على وجه التحديد . ان تحديد المصطلحات تحديدا دقيقا هو الذي يجعل مناقشة آراء الكاتب ممكنة ، خصوصا اذا ما تعلقت هذه الاراء بحكم تعميمي عن حقبة كاملة من تاريخ الانسانية . غير اننا لا نستطيع ان نعرف على وجه التحديد وجهة نظر الكاتب في تعريف الثورة والفكر

الثوري وخصوصا اذا ما أردنا استخدام هـذه المصطلحات بالنسبة للمجتمعات التاريخية القديمة .

ثم ينتقل الكاتب الى الاجابة على سؤال هام : هل كل الثورات تكـون مسبوقة بفكر تحريضي وداع للثورة ؟ يميز الكاتب تمييزا اساسيا بيـن الثورات الاشتراكية والديموقراطية وبين الثورات الوطنية أو التحررية . بالنسبة للثورات الاولى نجد انهـا تعد نتيجـة فكري ثوري سابق عليهـا ، اما بالنسبة للنوع الثاني من الثورات فهي تتم بدون ان يسبقها اعداد نظري متكامل ، بل تتم ضمـن افكار محدودة ومعنيةتتعلق بأساسيات وطنية دون افاضة من الرؤيـة الثورية . ويضرب مثلا لذلك بالثورة الكوبية التي تفجرت اولا وسارت شوطا ، ثم اختارت النظريـة الثورية بعد نجاحها . ويخلص الكاتب من مناقشة هذا الموضوع الـى نتيجة هامة هي انه ليس من المحتم تأجيل اطلاق ساعة الثورة الى ان تكتملالنظرية الثورية ، وان كان هذا لا ينفي ان الاعداد النظريالسابق للثورة شرط ضروري لخلق الثورات الاصيلة .

وينتقل الكاتب بعد ذلك لمناقشة الموضوع الثاني وهو عن العلاقة بيـن الفكر والبناء التحتي . والنظرية الاشتراكية العلمية قدمتنظرية بهذا الصدد تعد من الانجازاتالحقيقية التـي اضافتهـا الاشتراكية العلمية للفكر الانساني .

وقد بدأ الكاتب المناقشة بطرح السؤال الرئيسي الذي يثار دائما بصدد هذا الموضوع : هل فكر الناس هو الذي يخلق وجودهم ، أمان وجودهم هو الذي يحدد افكارهم ؟

قدمت الاشتراكية العلمية ردها على هذا التساؤل علـى اساس التمييز في بنية المجتمع بين نوعين من البناء : البناء التحتي ويعني به مجموع ادوات الانتاج وعلاقات الانتاج ، والبناء الفوقي ويعني جماع به الافكار الدينية والسياسية والاجتماعية والقانونية . والبناء الفوقي يعتمـد في وجوده على البناء التحتي ، فاذا تغير هذا الاخير (أي ادوات الانتاج وعلاقات الانتاج) فلا بـد ان يتغير البناء الفوقي أيضا. ويحاول الكاتب ان يجيب على التساؤلات التي تثار بصدد نوعيةالعلاقة بيـن البناء التحتي والبناء الفوقي ، وهل هي علاقة حتمية منناحية، وهل هي علاقـة ذات اتجاه واحد أم هي علاقة ديالكتيكية من ناحيـة اخـرى ؟

بالرغم من تسليم الكاتب بلزوم هذه العلاقة ، خلص الى ان للفكر فعاليـة خاصة ، وهـو « بامتزاجه بالارادة الثورية قد يوفقفي خلق مجتمعاشتراكي من رحم مجتمع متخلف ما دام العصرهو عصرالاشتراكية وتعاظم المعسكر الاشتراكي » .

والحقيقة أنه يبدو لنا ان الكاتب أراد ان يميز بين امرين مختلفين تمام الاختلاف . فوجهة النظر الكلاسيكية في الاشتراكية العلمية ترى بصدد العلاقة بين البناء التحتي والبناء الفوقي ان هناك صلة عضوية وثيقـة بيـن الافكار والمثل والنظريات السياسية والاجتماعية السائدة وبيـن ادوات الانتاج وعلاقات الانتاج . ولنقرب مثالا محددا .

مم كان يتكون البناء التحتي للراسمالية في بدايـة القرن مثلا ؟ كـان يتكـون من ادوات انتاج تتمثل في المصانع بآلاتها وفي الاراضي الزراعية . وكذلك من علاقات الانتاج بيـن الرأسماليين وكبار الملاك الزراعيين من جانب وبين العمال والفلاحين الاجراء في جانب اخر .

هذا البناء التحتي للمجتمع الرأسمالي كـان يقابله بناء فوقي يتمثل ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ في مجال الاقتصاد بالدعوة لمذهب المجتمع المفتوح والمشروع الحر ،وفي مجال القانون بنظرية ان العقـد هو شريعـة المتعاقدين ، وذلك لتبرير استغلال الانسان للانسان، وفـي مجال الاجتماع بنظرية الداروينية الاجتماعية التـي صيغـت علـى ضوء مسلمات داروين والتي تريد ان تبرر الاستغلال في المجتمع علـى أساس ان البقاء للاصلح وللاقوى .

هل معنى هذا استحالة وجود فكر آخر مضاد يعيش ولو علىهامش الفكر الرسمي الذي يضع كل خدمـاته تحت امرة الرأسمالية ؟ لا على سبيل القطع . فقد وجد دائما في تاريخ الانسانية على هامش الفكـر الرسمي الفكر المضاد الذي يحاول من خلال معارك طويلة وعنيفةالتمهيد للتغييرات الكبرى في المجتمع . وجود هذا الفكر المضاد لا ينفي مطلقا اعتمـاد البناء الفوقي على البناء التحتي في المجتمع . والاشتراكيـة العلمية هنا ارادت ان تركز على ان لكل بناء تحتي بناء فوقيا ملتحما به التحامـا شديدا ، لدرجـة ان مصير هذا البناء في تغيره وتطوره وزواله رهيـن بالتغير في البناء التحتي .

والحقيقة انه مما يحمد للكاتب اتساع افقه ومرونة تفكيره ،واذا شئنا الدقة لقلنا حرصه على تبني المنهج النقدي ، وحرصه على عدم قبول بعض القوالب النظرية الجامدة بغير تدبر . ويبدو ذلك كله في ادراكه لصعوبة وتعقيد موضوع علاقة الفكر بالبناء التحتي . وأي باحث اتيحلـه ان يفكـر في هـذا الموضوع من هذه الزاوية ، لا بد انتجابهه اسئلـة متعددة ليست هناك حتى الآن اجابات جاهزة عليها . وهي من ثم تحتاج فعـلا كمـا ذهب الى ذلك الاستاذ عزيز الجاسم الى مناقشات عريضـة ومتعمقة .

ونصل اخيرا الى الموضوع الثالث وهو النظرية الثورية والفكر عن الثوري . ويظهر في بدايـة مناقشة الكاتب لهذا الموضوع سماته الواضحـة التي اشرنـا اليها ومنهجه . فالنظرية الثورية اشبـــه بالبوصلة التي تحدد للثوري طريق السير ، ولكنهـا في نفس الوقـت ليست صيغـة كاملة ونهائية . فالنظرية الثورية ثمرة التفاعل بينالانظار المجـردة والتجربة ، ومن هنا تكتسب النظرية الثورية حيويتها .

ويظهر اتساع افق الكاتب في تحديده لاسباب عقم النظريـة الثورية . وأهم هذه الاسباب أن يقنع انصار النظريـة الثوريـة بها بحسبانها منتهى العلم بالواقع ، ممـا يؤدي الى عدم معرفة الواقـع الحي المتجدد .

والسبب الثاني أن يتصور بعض الاشخاص الذين يعتنقون نظرية ثورية كالماركسية أنه يكفيهم أن يلوكوا بعض المبادىء العامة للماديـة الديالكتيكية أو المادية التاريخية . ثم يقرر الكاتب أنه « من المستحيل أن يكون المرء ماركسيا اذا لم يعرف عالمه ، مجتمعا واقتصاديا ،وسياسة وفنـا وعلاقات ».

وما ذهب اليه الكاتب يتفق في جوهره مع كل الانتقادات التـي وجهت الـى الماركسيـة وخصوصا في فتـرة عقمهـا أيـام الحقبة الستالينيـة .

فقـد بدا الامر وكأن الماركسية قد امتلكت الحقيقة مرة واحدة والى الابد ، وليس هناك مجال من بعد سوى ترديد شعاراتهاومبادئها النظريـة بطريقـة ببغاوية ، مما جعل الامور تتشابه مع الاديانواغـلاق باب الاجتهـاد الى غيـر ذلـك .

ان النظريـة الثوريـة ينبغي في واقع الامـر معاملتها معاملـة النظريـة العلمية . والنظرية العلمية مهما بلغت من الدقة والشمول تظل ـ بمصطلحات مناهج البحث ـ فرضا اجرائيا ، ينبغي ان يخضـع لاختبارات الواقع دواما وبغير توقف . وليس معنى ذلك ان أيحالة سلبيـة لا تفسرهـا النظرية كفيلة بهدمها ، ولكـن اذا تعددت هـــذه الحالات السلبيـة ، واصبحت هي القاعدة ، فـلا بد اذن من طـــرح النظريـة وابتداع نظريـة أخرى اقدر على التفسير .

٥ ـ وننتقل بعد ذلك الى بحث عن « حرب التحرير العربيـة الفلسطينية : انطلاقتهاوابعادها » للاستاذ هادي طعمة . ولعـل اول انطباع يأخذه القارىء لهذا البحث ، السلاسة الواضحة في الاسلوب، والمنهجية في عرض الكاتب لافكاره . وقد استعرض الكاتب استعراضا

سريعا للمراحل التاريخية التي مرت بها الثورة العربية الفلسطينية، قبل أن يحلل وضع الاقطار العربية ، واتجاهات النظم العربية المختلفة ازاء قضية التحرير.غير ان اكثر اجزاء المقال أهمية هو الجزء الاخير الذي حاول فيه الكاتب تشخيص الوضع الراهن للمعركة الضارية بيننا وبين اسرائيل ، ودراسة مختلف الاحتمالات التي قد تنجم عن تصاعد العمليات الفدائية وتطورها الى حرب شعبية شاملة . والواقع ان المفاضلة بين الاحتمالات المختلفة قد يتفق عليها الباحثون المتابعون لتطورات الاوضاع وقد يختلفون ، ولكن أهم ما في المقال ايمان الكاتب الواضح بأن السبيل الامثل الذي يتعين على قوى الثورة العربية ان تخوضه هو حرب التحرير الشعبية .

٦ ـ واخيرا نصل الى بحث « من الازمة الى النكسة : مع انسان الشاروني » للاستاذ أحمد محمد عطية . وهو بحث يحاول أن ينظر نظرة شاملة لادب القاص المصري يوسف الشاروني . ولا بد لي أولا من ان أسجل انطباعاتي الاولى عن المقال . أول ما يستلفت النظر ان الكاتب يتمتع بميزة العرض المنهجي المنظم لافكاره . واحس الان انني اكترث من الالحاح على هذه السمة الهامة عند بعض الكتاب في هذا العدد الذي اعرض له ، ولكن قد يكون ذلك في الحقيقة رد فعل لكثير من الكتابات الرديئة التي تجهد فيها مع كتابها لكي تستطيع ان تعثر على خيط واحد متصل يعبر عن افكارهم فتفشل في ذلك . بحثنا هذا الذي تعرض له يتسم على العكس بالوضوح . غير ان اهم ما يتسم به الكاتب أنه يكتب بأسلوب دبلوماسي رقيق ان صح التعبير . فبالرغم من اخلاصه الواضح في دراسة ادب الشاروني ، الا انه لم يجب على كثير من التساؤلات التي لا بد ان يثيرها كل من اتيح له ان يتابع ادبه . والواقع انني أصدر في ذلك عن خبرة شخصية مع ادب الشاروني. فقد قرأت له مجموعتيه « العشاق الخمسة » و« رسالة الى امرأة » ، وقرأت له ايضا قصة « الزحام » التي نشرت منذ سنوات في احدى الجرائد القاهرية . واذا كنت لم اتابع ما نشره الشاروني بعد « قصة الزحام » . مما قد يجعل من حكمي عليه ناقصا او مبتسرا ، الا انني اعتقد انه مما لا يجاوز الحقيقة كثيرا ان نقرر ان بعض النقاد بالغوا في تقدير نوعية القصص التي يكتبها الشاروني. وليس بعيدا عن ذاكرتنا قول يحيى حقي عنه ذات مرة انه « استاذ في القصة القصيرة » . ما مدى صحة هذه الاحكام ؟ وما وضع يوسف الشاروني الحقيقي بين ابناء جيله ؟ وما مدى اسهامه الفعلي في تطوير القصة العربية ؟ وما مدى تأثر الاجيال الجديدة من القصاصين الشبان بانتاجه ؟

كل هذه الاسئلة كنا نتمنى لو اتيح للاستاذ احمد محمد عطية ان يجيب عنها ، وهو قادر على ذلك قطعا ، بحكم دراسته المتعمقة لقصص الشاروني في مراحلها المختلفة .

وفي رأيي ان الشاروني لو استطاع ان يحافظ على المستوى الرفيع الذي بلغه في قصة « الزحام » أو ان يتجاوزه الى الاحسن ، لكان مقدرا له ان يلعب في تطوير القصة العربية دورا أبرز مما فعله حتى الآن . غير ان الاستاذ احمد محمد عطية ـ والعهدة عليه على كل حال ـ يذكر ان آخر قصص الشاروني المنشورة وهي « نظرية في الجلدة الفاسدة » يعيبها المباشرة في التناول والاسلوب والنهاية .

وقد يكون الاستاذ الشاروني خبيرا في التكنيك القصصي ، ولكن متى كانت الخبرة بالتكنيك وحدها شرطا لابداع قصص جيدة ؟ مازال ادباؤنا المعاصرون في حاجة الى تقييم حقيقي وموضوعي لانتاجهم . هل لنا ان نطلب من نقادنا الجادين مثل الاستاذ احمد محمد عطية قليلا من الدبلوماسية وكثيرا من الصراحة والموضوعية ؟

السيد يس
المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ـ القاهرة

محمود أحمد السيد
رائد القصة الحديثة في العراق

تأليف
الدكتور علي جواد الطاهر

اول دراسة مسهبة عن رائد القصة العراقية الحديثة الذي أثار اهتمام المستشرقين والباحثين بما انتجه من روايات وقصص مهدت الطريق لجميع كتاب القصة الحديثة في العراق

يصدر هذا الشهر